بهاء الدين بن شداد
وكتابـه
"النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية"
(سيرة صلاح الدين الأيوبي)

د.أ د فوزي ا يب

ابن شداد

بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع الأسدي [1]، ولد في الموصل عام ٥٣٩هـ (١١٤٥م)، توفـي أبوه وهو صغير، فنشأ عند أخواله بني شداد، وشداد هو جـده لأمه، وإليه نُسب، [2] حفظ القرآن الكريم في مسقط رأسه الموصل، وفيها أيضاً تلقى علومه في القراءات والتفسير والحديث النبوي والفقه والأدب على كبار مشايخها مثل أبي بكـر يحيـى بن سعدون القرطبي، وابن الشيرجي أبي البركات عبد ا   بن الخضر، ومجد الدين عبد ا   بن أحمد الطوسي، وفخر الدين سعيد بن عبد ا   الشهرزوري، والحافظ مجد الدين عبد ا   بن محمد الأشيري الصنهاجي وغيرهم [3].

ثـم سـافر إلى بغداد بعد التأهل التام، ونزل بالمدرسة النظامية أعظم مدارس العالم الإسلامي آنـذاك، ورُتب فيها معيداً بعد وصوله بقليل، نحو أربع سنين، وأفاد في بغداد من أحمد بن عبد ا الشاشي ورضي الدين القزويني وغيرهما [4].

---

[1]- تتمة ا ختصر ٢ /٢٣٦، البداية والنهاية ١٣ /١٥٤.
[2]- وفيات الأعيان ٧ /٨٤.
[3]- ا صدر السابق ٧ /٨٤ -٨٦.
[4]- ا صدر السابق ٧ /٨٦ -٨٧.

وبعد ذلك عاد ابن شداد إلى الموصل سنة ٥٦٩هـ ليدّرس في المدرسة التي أنشأها القاضي كمال الدين محمد بن الشهرزوري، [١]، فاشتهر، وذاع ذكره، وارتفعت مكانته بفضل كثرة علمه وسعة حكمته ورجاحة عقله، وصار علماً من أعلام الموصل، فعهد إليه أتابكها بالسفارة إلى الخليفة العباسي وصلاح الدين الأيوبي في كثير من الأمور الهامة [٢] وهذه السفارات هي التي عرّفت صلاح الدين به، وجعلته يعجب به، ويحبه، ويطلب منه أن يلتحق بخدمته مع غيره من أكبر رجالات العصر علماً وأدباً مثل القاضي الفاضل والعماد الكاتب الأصفهاني. وكان ذلك سنة ٥٨٣هـ في أثناء زيارته لدمشق في طريق عودته من الحج، إذ استدعاه صلاح الدين الذي كان قد عرفه من قبل، وكان آنذاك يحاصر قلعة كوكب، فقابله بالاحترام والإكرام، وسمع منه بعض الأحاديث النبوية في صحيح البخاري، وأمر العماد الكاتب أن يطلب منه العود إليه (أي إلى السلطان) بعد انتهائه من زيارة بيت المقدس [٣].

رجع ابن شداد إلى صلاح الدين فأعلمه برغبته في بقائه عنده، فقبل ذلك على الرغم من أنه كان قد قرر الاعتزال والتفرغ للعبادة وللعلم في الموصل [٤]، وذلك لما كان يكنه من حب لصلاح الدين، ولما رآه من حبه للجهاد والإخلاص، وكان ذلك في مستهل جمادى الأولى عام ٥٨٤هـ بعد فتح القدس [5] خلافاً لما ذكره محمد حلمي محمد أحمد محقق كتاب الروضتين في مقدمته (ص ٢٥) من أن ابن شداد قد لازم صلاح الدين قبل فتحه للقدس، وذلك لأن القدس كان في ٢٧ رجب عام ٥٨٣هـ [٦].

جعل صلاح الدين ابن شداد قاضي عسكره [٧]، وأول قاض للقدس وناظراً لأوقافها بعد تحريرها [٨]، وصار أيضاً واحداً من أقرب أصفيائه وموضع سره لا يفارقه ليل نهار، ويرافقه في أكثر معاركه، كما غدا كذلك شيخاً له يتلو عليه الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي تحث على الجهاد [٩]، ويبتهل معه إلى الله عند الشدائد، ويواسيه في النكبات، ويحمد الله معه في الانتصارات[١٠].

---

[١]- المصدر السابق ٧/ ٨٧.
[٢]- زبدة الحلب ٢/ ٥٦٣، النوادر السلطانية، ٧٠، ٧٥، ٨٥.
[٣]- وفيات الأعيان ٧/ ٨٧.
[٤]- المصدر السابق ٧/ ٨٨.
[٥]- النوادر السلطانية ٨٧.
[٦]- المصدر السابق ٨٢.
[٧]- تتمة المختصر ٢/ ٢٣٦.
[٨]- وفيات الأعيان ٧/ ٨٨.
[٩]- النوادر السلطانية ٢١.
[١٠]- المصدر السابق ٢١ -٢٥ -٢٧ وغيرها.

كـان ابـن شداد مخلصاً وللسلطان صلاح الدين، ناصحاً لهما، عالماً عاملاً، لم ينافس أحداً علـى حطـام الدنـيا، زاهداً في المناصب، يعمل في الصمت أعمالاً جليلة تثبت جدارته، فينال ما يسـتحق بهـدوء وتواضـع، مما جعل صلاح الدين يزداد في تقريبه إليه، حتى كان هو والقاضي الفاضـل آخـر من يبقى معه كل ليلة من ليالي مرضه الأخير الذي توفي به ليلة الأربعاء ٢٧ من صـفر عام ٥٨٩هـ في دمشق [١]. ومما يدل على إعجابه الشديد بصلاح الدين قوله عنه: "انظر إلى الهمّـة التـي لم يشغلها عن الغزاة أخذ حلب ولا الظفر بها، بل كان غرضه الاستعانة بالبلاد على الجهاد، فا يحسن جزاءه في الآخرة كما وفقه للأعمال المرضية في الدنيا [٢].

أخلـص ابن شداد لصلاح الدين في حياته، كما أخلص لـه بعد وفاته، وذلك بوقوفه من أولاده موقـف الناصح لهم المصلح لما بينهم، لذا نجده كثير التنقل بين حلب والقاهرة لهذا الأمر [٣]، ولقد اعتمد عليه الملك الأفضل بن صلاح الدين واحترمه كثيراً، وكان يشاوره في جليل الأمور ودقيقها، ولكـنه عـندما ورد إليه كتاب أخيه الظاهر ملك حلب يطلب فيه أن يتحفه بابن شداد أجابه إلى ذلك إيثاراً وحباً، وسيّره إليه [٤].

وصـل ابـن شداد إلى حلب، فأعظمه الملك الظاهر، وفوّض إليه قضاءها [٥] والإشراف على أوقافهـا، وجعلـه عـنده في رتبة الوزارة والمشاورة [٦]، فعني بترتيب أمرها وجمع الفقهاء بها، وعمّـرت فـي أيامه المدارس الكثيرة، كما أنشأ هو نفسه مدرسة فخمة وداراً للحديث، وجعل تربته بيـنهما ليدفن بها عند وفاته، وتشمله بركة العلم ميتاً كما شملته حياً [٧]، وكان ذا ثروة كبيرة أنفقها كلهـا على المدارس والعلم [٨]، وبفضله علت منزلة حلب العلمية، فأتاها الطلاب ليدرسوا فيها عليه وعلـى غيـره ممـن وفـد عليها من العلماء [٩]، ومن هؤلاء الطلاب ابن خلكان [١٠] وابن واصل الحموي، وبفضله أيضاً جالس طلاب العلم رجالات الدولة وعلت منازلهم [١١].

اسـتمر ابن شداد في عطائه العلمي وهو أقرب الناس إلى الظاهر منزلة، وله الإقطاع الجليل والحرمة التي لم يصل إليها أحد من العلماء إلى أن توفي الملك الظاهر عام ٦١٣هـ.

---

(١)-ا صدر السابق ٢٤٤ -٢٤٦.
(٢)-ا صدر السابق ٦٣ .
(٣)-زبدة ا لب ٢ /٦٠٨ -٦٣٧ .
(٤)- وفيات الأعيان ٧ /٨٨، زبدة ا لب ٢ /٦٠٣ .
(٥)-البداية والنهاية ١٣ /١٥٤.
(٦)- وفيات الأعيان ٧ /٨٩.
(٧)-تتمة ا ختصر ٢ /٢٣٦.
(٨)- وفيات الأعيان ٧ /٨٩.
(٩)-الأعلاق ا ط ة ١ /١٢٢.
(١٠)-الأعلام ٧ /٢٣٠.
(١١)-ا صدر السابق ٧ /٢٣٠ ا اشية رقم ١ .

وفي زمن الملك العزيز بن الظاهر ازدادت منزلة ابن شداد سمواً، إذ اعتمد عليه طغريل أتابك الملك في تسيير أمور المملكة [١]، وجعله شريكاً له في الوصاية على الملك العزيز الذي كان صغيراً إلى أن بلغ سن الرشد [٢]، وكان العزيز ينزل إليه في كل وقت ليستشيره في المهمات الخطيرة، ومنها أنه رأس الوفد الذي سافر إلى القاهرة عام ٦٢٩هـ ليحضر ابنة الملك الكامل محمد زوجاً للملك العزيز رغم شيخوخته [٣] [٤]، وذلك لما لهذا الزواج من أهمية سياسية كبرى جعلته شبيهاً بزواج أبيه الظاهر من ابنة عمه العادل ضيفة خاتون من قبل [٥].

وبسبب شيخوخته بعد ذلك تضاءل دوره السياسي والإداري، ولكن دوره العلمي استمر حتى أواخر عمره، إذ ظل ملازماً لمجالسْ العلم ومجالسة رجالاته [٦]، وكان يسلك طريق البغاددة في ترتيبهم وأوضاعهم وملبوسهم، والرؤساء الذين يترددون إليه كانوا ينزلون عن دوابهم على قدر أقدارهم، لكل واحد منهم مكان معين لا يتعداه [٧]، وصار للفقهاء في أيامه حرمة تامة، خصوصاً أهل مدرسته، فإنهم كانوا يحضرون مجالس السلطان، ويفطرون على سماطه في رمضان، كما مدحه بعض الشعراء، ومنهم ابن خروف الشاعر الذي مدحه واستهداه فروة قائلاً:

بهاء الدين والدنيا	**ونور المجد والحسب**
طلبت مخافة الأنوا	**ء من نعماك جلد أبي**
وفضلك عالم أني	**خروف بارع الأدب**
حلبت الدهر أشطره	**وفي حلب صفا حلبي** [٨]

وبعد ثلاث وتسعين سنة من التعب المضني في ميادين السياسة والعلوم والآداب أسلم روحه لبارئها في حلب عام ٦٣٢ [٩]، ودفن في تربته التي أنشأها، ولازم الفقهاء والقراء تربته مدة طويلة يقرؤون القرآن الكريم فيها.

---

(١)- تتمة / مختصر ٢ /٢٣٦.
(٢)- زبدة / حلب ٢ /٦٤١ -٦٤٢.
(٣)- وفيات الأعيان ٧ /٩٩.
(٤)- زبدة / حلب ٢ /٦٦٥ -٦٦٩.
(٥)- زبدة / حلب ٢ /٦٣٣.
(٦)- وفيات الأعيان ٧ /٩٩.
(٧)- المصدر نفسه.
(٨)- المصدر نفسه ٧ /٩٤.
(٩)- النجوم الزاهرة ٦ /٢٩٢.

وعلى الرغم من أن ابن شداد كان ثالث علمين عظيمين في ميادين الأدب والعلوم والسياسة والإدارة حول صلاح الدين، وهما القاضي الفاضل [١] والعماد الكاتب [٢]، إلا أنه تميز عنهما بأنه لم يتصل بصلاح الدين بوساطة أحد، بل إن صلاح الدين قد عرفه في أثناء سفاراته إليه، وهو الذي ألح عليه بالبقاء معه بسبب فضله قبل أربع سنوات من وفاته (أي وفاة صلاح الدين)، وهي على قلتها كبيرة الأهمية ملأى بالأحداث، أرخّها ابن شداد تأريخاً متميزاً خلّدها وخلاده بسبب التصاقه الشديد بصلاح الدين. بينما كان القاضي الفاضل متصلاً بأسد الدين شيركوه عم صلاح الدين عندما كان وزيراً في مصر، ومنه انتقل إلى صلاح الدين عندما تسلّم وزارة مصر من عمه، وأما العماد الكاتب فإنه كان من حاشية نور الدين محمود زنكي، ثم غادر الشام بعد وفاته إلى الموصل، وبعد دخول صلاح الدين دمشق رجع إليها، واتصل بالقاضي الفاضل ليتوسط له عند صلاح الدين ليجعله في ديوان الإنشاء [٣].

لم يضن ابن شداد بعلمه الغزير على غيره [٤]، بل أوصله إلى أعلام عصره الذين أتوا إليه وإلى مدرسته في حلب، ومنهم ابن خلكان [٥]، وابن واصل الحموي مؤرخ الأيوبيين الذي افتخر بتلمذته عليه [٦]، وأبو شامة صاحب "كتاب الروضتين في أخبار الدولتين" الذي جعل كتاب سيرة صلاح الدين لابن شداد مصدراً هاماً من مصادره [٧].

ولعل من المفيد أخيراً أن نميز بين ابن شداد بهاء الدين الذي تحدثنا عنه آنفاً، وابن شداد عز الدين محمد بن علي صاحب كتاب الأعلاق الخطيرة الذي ولد في حلب عام ٦١٣هـ (١٢١٧م)، ثم انتقل إلى القاهرة، وتوفي فيها عام ٦٨٤هـ (١٢٨٥م) [٨]، بعد أن عاصر ابن شداد بهاء الدين في حلب مدة تسعة عشر عاماً، وأخذ منه إجازة برواية الحديث.

وتشابه كنيتي الرجلين بهاء الدين وعز الدين، واشتراكهما في الإقامة بحلب والتأريخ والخدمة السلطانية والوفاة في قرن واحد، هو السابع الهجري، جعلا بعض الباحثين يخلط بينهما، وبين مؤلفاتهما، مثل حاجي خليفة وجرجي زيدان والغزي وأحمد أحمد بدوي وبروكلمان وعبد اللطيف حمزة، والسيد الباز العريني [٩].

---

(١)- *عبد الرحيم بن علي ٥٢٩ -٥٩٦ (انظر الأعلام ٣ /٣٤٦).*

(٢)- *مد بن مد ٥١٩ -٥٩٧ (انظر الأعلام ٧ /٢٦).*

(٣)- *الأدب العصر الأيو ١ /٢٢٣ وما بعدها، ٢٤٣ وما بعدها.*

(٤)- *الروضت ، / قدمة ٢٤ -٢٥.*

(٥)- *الأعلام ٨ /٢٣٠.*

(٦)- *مفرج الكروب ٤ /٣١١.*

(٧)- *النوادر السلطانية، / قدمة ٤ -٥، الروضت / قدمة ٢٨.*

(٨)- *الأعلام ٦ /٢٨٣.*

(٩)- *النوادر السلطانية، ٧ -٨.*

وبعـد فإن بهاء الدين يوسف بن رافع أشهر من سميه عز الدين، وأهم كتبه التي وصلت إلينا هي:

١-كتاب دلائل الأحكام (تحدث فيه عن أحاديث الأحكام النبوية).

٢-كتاب ملجأ الحكام عند التباس الأحكام (في القضاء).

٣-كتاب العصا (المقصود موسى وفرعون).

٤-كتاب الموجز الباهر (في الفقه).

٥-كتاب أسماء الرجال الذين في المهذب للشيرازي.

٦-دروس في الحديث (ألقاها في القاهرة عام ٦٢٩هـ)

٧-كتاب فضل الجهاد (ألفه لصلاح الدين) (1).

٨-النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (أو سيرة صلاح الدين).

وسـوف أعـرض آخرها، "النوادر السلطانية"، لأنه هو الذي خلد ابن شداد، وجعله من كبار المؤرخـين، كما حاول هو أن يخلد صلاح الدين فيه، ولا يخفى الأثر الذي يتركه موضوع الكتاب على مؤلفه شهرة أو خمولاً، ولا يعني هذا أن ابن شداد كان يسعى إلى ذلك أو يدركه، وإنما الذي لا شـك فـيه أنه ألفه مخلصاً لا يريد به إلا وجه الحق، ورد بعض جميل صنيع صلاح الدين لأمته، وجعلـه قـدوة لمـن سيأتي بعده، وتخليده رمزاً تتجسد فيه على مدى الأيام أسمى صورة للفروسية والنبل والعروبة والإخلاص، تزرع الأمل منيراً في أكثر ليالي الأمة ظلاماً، ولنؤمن إيماناً راسخاً أن الأمـة التـي حررت القدس بعد احتلال وحشي دام واحداً وتسعين عاماً قادرة على أن تحررها في عصرنا الحديث هذا مرة أخرى.

كتاب النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (أو سيرة صلاح الدين)

أهـم كـتاب أرخ لصـلاح الدين الأيوبي ولعصره ولحروبه مع الفرنجة، وانتصاراته عليهم، ولتحريـره للقدس، وذلك لأن صاحبه كان من أقرب الناس لصلاح الدين في السنوات الأخيرة، من حياة صلاح الدين، وهي سنوات حاسمة في الصراع العربي الفرنجي.

ومثلما أدرك المؤرخون العرب، كابن خلكان وأبي شامة وابن واصل وغيرهم، مكانة الكتاب، فأكثـروا من الاقتباس منه، أدرك الغربيون ذلك أيضاً، فعنوا به، وطبعوه وترجموه إلى لغاتهم منذ القـرن الثامن عشر، عندما قام المستشرق الهولندي ألبرت شولتنس سنة ١٧٣٢م بنشره مع ترجمة لاتينـية له، ثم أعيد نشر هذه الطبعة بعد وفاة صاحبها شولتنس ثانية عام ١٧٥٥، ثم ثالثة في ألمانيا عـام ١٧٩٠م، ثـم أعاد دي سلان الفرنسي تحقيق الكتاب ليتلافى أخطاء الطبعات السابقة، وكذلك

(1)-*الأعلام ٨/٢٣٠، النوادر السلطانية / قدمة ٨ -٩.*

ترجمه أيضاً الإنجليزي كلاود كوندر إلى لغته (١).

أما في البلاد العربية فقد طبع الكتاب بمصر عام ١٣١٧هـ (١٨٩٩م) طبعة غير محققة، ثم طبع طبعات ثلاثاً في الأعوام ١٩٠٣م و١٩٠٥م و١٩٢٧م (٢)، وبعد ذلك حققه الدكتور جمال الدين الشيال وطبعه في القاهرة عام ١٩٦٤ (٣). وهذه هي التي اعتمدنا عليها في دراستنا هذه.

جعل ابن شداد كتابه في مقدمة وقسمين:

أما المقدمة (٤):

فقد وضح فيها هدفه، وهو العبرة لأولي الأفهام، فكل حال لا بد من أن ينقضي، فلا يغتّر صاحب الحال الحسن، ولا ييأس صاحب السقيم (5) ثم انتقل إلى تبيان هدفه الخاص، وهو أنه عندما رأى انتصارات صلاح الدين وجنده قد صدقت ما وصل إلينا من انتصارات الأجداد في اليرموك والقادسية، وأن جوده قد شهد بصحة ما وصل إلينا من أخبار الكرماء من الأسلاف، وأن ما رأت العين من صبره وصبر جنده على المكاره في سبيل ا ، قد قوّى الإيمان لدى الناس، وأن عجائب انتصاراته أعظم من أن تتخيلها الأفكار، أو أن يعبر عنها لسان أو قلم. وعلى الرغم من أنها أعظم من أن تخفى، فلا يستطيع -وهو المطلع عليها المصاحب لصاحبها المعطى من فضله -إلا أن يبدي ما رآه بعينه بعد التحاقه بخدمته منذ عام ٥٨٤هـ إلى وفاته (أي وفاة صلاح الدين) عام ٥٨٩هـ، ويروي ما سمعه من ثقة لا يشك في صدقه، وهذا القليل الذي رواه يستدل به على الكثير من الذي رآه وسمعه (٦).

وبعد ذلك ذكر ابن شداد عنوان كتابه، وهو النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (٧) نسبة إلى السلطان صلاح الدين وإلى اسمه، وهو يوسف.

ثم بيّن أنه جعله في قسمين:

أحدهما:

في مولده ومنشئه وخصائصه وأوصافه وأخلاقه المرضية وشمائله الراجحة في نظر الشرع

---

(١)- لة الذخائر، العدد ٩ عام ٢٠٠٢ ص ٢٧٧ وما بعدها.

(٢)-ا رجع السابق ص ٢٨١.

(٣)-طبعته القاهرة الدار ا صرية للتأليف والتر ة عام ١٩٦٤ طبعة أو ، وليست طبعة ثانية كما ذكرت سفانة ا بوري ثها جلة الذخائر العدد ٩ ص ٢٨٢، وعنوانه (كتاب النوادر السلطانية وا اسن اليوسفية لبهاء الدين بن شداد ب طوطاته وطبعاته).

(٤)-تبدأ من ص٣ من الكتاب.

(٥)-النوادر السلطانية ٣.

(٦)-ا صدر السابق ٣ -٤.

(٧)-ا صدر السابق ٤.

الوفية. وهو صغير يبلغ عدد صفحاته تسعاً وعشرين صفحة.

ثانيهما:

فـي تقلـبات الأحوال به ووقائعه وفتوحه وتواريخ ذلك إلى آخر حياته. وهو كبير يبلغ مئتين وأربع عشرة صفحة [١].

وتقسيم ابن شداد هذا، والذي صرّح به في مقدمته، ينفي بما لا يدع مجالاً للشك ما توهمه محمد درويـش في مقدمة كتابه (اختيارات من كتاب النوادر السلطانية) [٢] من أن ابن شداد قد جعل أول قسـمي كتابه منذ ولادة صلاح الدين حتى التحاق ابن شداد به [٣]، والثاني: يبدأ بهذا التحاق وينتهي بوفاة السلطان عام ٥٨٩هـ [٤].

في القسم الأول:

ذكـر ابـن شداد أن مولد صلاح الدين كان عام ٥٣٤هـ في قلعة تكريت، وأن والده أيوب بن شـاذي كان والياً عليها، وكان كريماً أريحياً حليماً حسن الأخلاق، انتقل بعد ذلك مع ابنه وأخيه أسد الـدين شـيركوه إلى الموصل مقدّماً عند أتابك زنكي، ثم أعطي بعلبك، فانتقل إليها مع ابنه صلاح الـدين الـذي كان قد شب وبدت منه أمارات الخير، فأحبه نور الدين محمود وقرّبه حتى أرسله مع عمه إلى مصر [٥].

ثـم تحدث ابن شداد عن عقيدة صلاح الدين السليمة التي أخذها عن العلماء بالدليل، وأنه كان محافظـاً على الصلاة بوقتها جماعة [٦]. وأما الزكاة فإنها لم تجب عليه لأن عطاياه لم تمكنه من أن يملـك نصابها، حتى إنه عندما توفي لم يخلف لورثته شيئاً قط ما عدا سبعة وأربعين درهماً وديناراً واحـداً [٧]. كما كان حريصاً على صيام رمضان وقضاء ما فاته منه بسبب الجهاد ومقتضياته [٨]. وأمـا بالنسـبة إلى الحج فقد شغله عنه الجهاد المستمر، وكان يحب قراءة القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف وسماعهما، وكثيراً ما كانت تدمع عيناه في أثناء القراءة والسماع [٩]، كما كان أيضاً

---

(١)-المصدر السابق.
(٢)-اختيارات من كتاب النوادر السلطانية ١٥.
(٣)-النوادر السلطانية من ٦ - ٣٤.
(٤)-المصدر نفسه من ٣٥ / ٢٤٨.
(٥)-المصدر نفسه ٦.
(٦)-المصدر نفسه ٧.
(٧)-المصدر نفسه ٨، ١٧.
(٨)-المصدر نفسه ٨.
(٩)-المصدر نفسه ٩ - ١٠.

كثيـر التعظـيم لشعائر الدين حسن الظن با ، كثير الاعتماد عليه [١]، عادلاً رؤوفاً رحيماً ناصراً للضـعيف على القوي، يجلس للعدل كل اثنين وخميس مجلساً عاماً [٢]. وأما كرمه فقد كان عظيماً يـدل علـيه أنـه لـم تجب عليه زكاة قط، وأنه لم يترك لورثته شيئاً [٣]. كما ضرب المثل الأعلى بشـجاعته وقوة نفسه وشدة بأسه وعظيم ثباته، وكان لا بد من أن يطوف حول العدو يومياً مرة أو مرتين إذا كان قريباً منه [٤].

ثـم ذكر ابن شداد شدة اهتمام صلاح الدين بالجهاد، ولقد ألف له كتاباً عنه، كان كثير المطالعة لـه [٥]، ويدلـنا علـى ذلك ما أخبر به صلاح الدين ابن شداد، وهو: "أنه متى ما يسر ا فتح بقية السـاحل، قسمت البلاد، وأوصيت، وودعت، وركبت هذا البحر إلى جزائرهم، أتتبعهم فيها، حتى لا أبقي على وجه الأرض من يكفر با أو أموت..."، فقال له ابن شداد: إنك سور الإسلام ومنعته، فلا ينبغي أن تخاطر بنفسك، فقال له: ما أشرف الميتات؟ فقال ابن شداد: الموت في سبيل ا ، فقال له: غايتي أن أموت أشرف الميتات [٦].

وبعـد ذلك ذكر ابن شداد طرفاً من صبره واحتسابه، ونبذاً من حلمه وعفوه ومروءته ومكارم أخلاقـه وعفوه، تؤكد صفاته الآنفة الذكر وتذكرنا بسيرة النبي (ص) والخلفاء الراشدين والصحابة والتابعين [٧].

والقسم الثاني [٨]:

جعله ابن شداد في تقلبات أحوال صلاح الدين ووقائعه وفتوحاته حسب تسلسلها التاريخي، بدأه بـتاريخ ذهابـه (أي صـلاح الدين) إلى مصر صحبة عمه أسد الدين شيركوه بأمر من نور الدين محمـود نجـدةً للوزير الفاطمي شاور، بعدما غلبه عدو له، اسمه ضرغام عام ٥٥٨هـ [٩]. ثم تابع تأريخـه للأحداث حسب توالي السنين، وتحدث فيما تحدث عن قضائه على الدولة الفاطمية، وتسلّمه مصـر وإعادتها إلى الخلافة العباسية عام ٥٦٧هـ [١٠] وإقامة العدل فيها، وتعاونه المخلص مع نور

---

(١)- صدر نفسه ١٠.
(٢)-/ صدر نفسه ١٣.
(٣)-/ صدر نفسه ١٧.
(٤)- صدر نفسه ١٩.
(٥)-/ صدر نفسه ٢١.
(٦)-/ صدر نفسه ٢٣.
(٧)-/ صدر نفسه ٢٤ -٣٤.
(٨)-/ صدر نفسه ٣٥.
(٩)-/ صدر نفسه ٣٦.
(١٠)-/ صدر نفسه ٤٥.

الدين في رد الفرنجة عن مصر التي كادت أن تسقط في أيديهم.

كما تحدث أيضاً عن فاجعة وفاة نور الدين، وما تركته من فوضى وفراغ لم يستطع ابنه الملك الصالح إسماعيل أن يملأه لصغر سنه وقلة حكمته وطمع حاشيته وجهلها [١]، وعما بذله صلاح الدين من جهد وصبر، حتى استطاع أن يملأ هذا الفراغ بتوحيده للشام ومصر، وبإعادة القوة إلى الجيوش العربية حتى استطاع أن يقلب ميزان القوة، وينتصر على الصليبيين نصراً حاسماً في معركة حطين التي حدثت في فلسطين عام ٥٨٣هـ، وقد وصفها ابن شداد وصفاً دقيقاً مفصلاً، بيّن فيه سمو أخلاق صلاح الدين وجنده وشجاعتهم، وما حل بالفرنجة من خسائر وخوف على الرغم من كثرة عددهم وعددهم، ويوضح هذا كل ما كتبه ابن شداد [٢]، ونكتفي بهذين النصين، وهما:

"ونصبت الخيمة، وجلس (أي صلاح الدين) فرحاً مسروراً لما أنعم الله به عليه، ثم استحضر الملك جفري وأخاه والبرنس أرناط، وناول الملك جفري شربة من جلاب مثلج، فشرب منها، وكان على أشد حال من العطش، ثم ناول بعضها البرنس أرناط، فقال السلطان للترجمان، قل للملك: أنت الذي تسقيه، وإلا أنا ما سقيته. وكان على جميل عادة العرب وكريم أخلاقهم أن الأسير إذا أكل أو شرب من ماء لمن أسره أمن، فقصد بذلك الجري على مكارم الأخلاق. ثم أمر بمسيرهم إلى موضع عين لنزولهم فمضوا وأكلوا شيئاً ثم عاد فاستحضرهم، ولم يبق عنده أحد سوى بعض الخدم، وأقعد الملك في الدهليز، واستحضر أرناط، وواقفه على ما قال، (أي عندما قال لقافلة من مصر نزلت عنده بالأمان في حالة صلح، فغدر بهم، واستخف بالنبي (ص)) [٣]، وقال له: هاأنذا أستنصر لمحمد (ص)، ثم عرض عليه الإسلام، فلم يفعل، ثم سل عليه النمجاه [٤]، وضربه به فحل كتفه، وتمم عليه من حضر.. فلما رآه الملك.. لم يشك أنه يثنّي به، فاستحضره السلطان وطيب قلبه، وقال: لم تجر عادة الملوك أن يقتلوا الملوك، وأما هذا فإنه تجاوز حده، فجرى ما جرى [٥]. والنص الثاني هو "ولقد حكى لي من أثق به أنه لقي بحوران شخصاً واحداً، معه طنب خيمة، فيه نيف وثلاثون أسيراً، يجرهم وحده لخذلان وقع عليهم [٦] (أي على الفرنج).

إن انتصار صلاح الدين في حطين لم يجعله يؤثر الراحة والكسل مكتفياً به، وإنما كان له حافزاً، ليتحرك بسرعة، ويحرر قلعة طبرية وعكا وتبنين وبيروت وعسقلان [٧]، ممهداً بها لتحرير

[١]- المصدر نفسه ٧٥ وما بعدها.
[٢]- المصدر نفسه.
[٣]- المصدر نفسه ٧٨.
[٤]- خنجر مقوس يشبه السيف القصير (DOZY SUP. DICT. ARAB).
[٥]- النوادر السلطانية ٧٨ - ٧٩.
[٦]- المصدر نفسه ٧٧.
[٧]- المصدر نفسه ٧٩ - ٨٠.

القدس الذي حررها صلحاً الجمعة السابع والعشرين من رجب عام ٥٨٣هـ، في ذكرى الإسراء والمعراج، ولقد استبشر الناس بذلك التوافق بين المناسبتين، وكان يوماً مشهوداً. وخرج الفرنجة من القدس، وبقي أهلها من المسيحيين فيها لم يمسهم سوء يرحبون بصلاح الدين. دفع أغنياء الفرنجة الفدية، وهي عشرة دنانير على الرجل، وخمسة على المرأة، واثنان على الطفل، وتحمل صلاح الدين دفع فدية فقراء الفرنجة الذين خذلهم ملوكهم وأغنياؤهم وأطلق سراحهم، وكان -حسب اتفاق الصلح -ينبغي أن يعدوا مماليك عبيداً، وأوصل كل من خرج من الفرنجة إلى مأمنهم [١]. ولا بد من أن يعقد الإنسان مقارنة بين تسامح صلاح الدين مع الفرنجة عند تحرير القدس ووحشية الفرنج عندما احتلوها، وما فعلوه من فظائع، تذكرنا بها فظائع اليهود فيها وفي جنين ونابلس وغيرها اليوم.

وسرعان ما غادر صلاح الدين القدس إلى "صور" يريد تحريرها، فحاصرها، إلا أن انتصار الأسطول الفرنجي على أسطوله ودخول الشتاء وتعب الجند وتذمر الأمراء جعله يرجئ ذلك إلى الربيع [٢]، وفيه بدأ بحصار حصن كوكب القريب من صور عام ٥٨٤هـ [٣]، وهنا دخل ابن شداد في خدمته، ولقد صرّح ابن شداد أن جميع ما رواه من قبل إنما هو روايته عمن يثق به ممن شاهده، وأن ما سيرويه بعد ذلك مما رآه بعينه عامة [٤].

تابع صلاح الدين تحرير البلاد من الفرنجة، حتى لم يبق معهم من المدن المنيعة سوى صور التي صارت مكان تجمعهم وإنطاكية وطرابلس. ولقد تم ذلك خلال عام ونصف [٥]، وهي فترة قياسية. وكان سبب هذه الانتصارات المتلاحقة أنه كان قائداً عسكرياً شجاعاً ونبيلاً في آن واحد، وميزته الكبرى -كما يقول د /شاكر مصطفى -كانت بتقاه، ببساطة فكرة، بكرمه، بوفائه بالعهود حتى للأعداء، بمثاليته، وبأنه نموذج خاص من رجال الحرب والسياسة [٦].

أجج تحرير القدس نار الحقد في أوربة، فأرسلت الحملة الفرنجية الثالثة يقودها ريتشارد قلب الأسد ملك الإنجليز، وفيليب أوغست ملك فرنسة وفريديريك باربروسا إمبراطور الألمان [٧].

وكان من الضروري أن أتابع سيرة صلاح الدين مفصلة، وأتحدث عن صور البطولة النبيلة النادرة إلا أن ضيق المجال يدفعني إلى أن أبلغ سريعاً نهايتها، وهو صلح الرملة عام ٥٨٨هـ الذي مهدت إليه مفاوضات استمرت خمسة عشر شهراً، قام بها اثنان وأربعون وفداً، كان البادئ في طلبها دوماً ريتشارد. وقد اتفق الطرفان على أن تبقى في يد الفرنجة يافا وقيسارية وأرسوف وحيفا وعكا،

---

(١)- المصدر نفسه ٨١ -٨٢.
(٢)- المصدر نفسه ٨٣ -٨٤.
(٣)- المصدر نفسه ٨٤.
(٤)- المصدر نفسه ٨٧.
(٥)- المصدر نفسه ٨٧ وما بعدها.
(٦)- صلاح الدين الفارس المجاهد ٤٢٢.
(٧)- النوادر السلطانية ١١٥ وما بعدها، صلاح الدين الفارس المجاهد ٢٨٣.

وتكـون عسقلان خراباً، واللد والرملة مناصفة، وأن تكون بلاد الإسماعيلية في هدنة صلاح الدين، أي معـه، وإنطاكية وطرابلس في هدنة الفرنج أي معهم (١)، وحرص صلاح الدين في هذا الصلح على ما يلي:

١- أن تكون مدته محدودة بثلاث سنوات وثلاثة أشهر.

٢- أن يحصر الفرنج في أضيق بقعة ممكنة.

٣- أن تبقى الجبال بيده، ليبقى الفرنجة بالأماكن المنخفضة فيكونوا تحت رحمته.

٤- أن ينقذ أكثر ما يمكن إنقاذه من مكاسب حطين.

٥- أن يفـتح القدس للحجاج الفرنجة دائماً، بعدما رفض طلب ريتشارد أن يأخذوا موافقته على ذلك، ليريهم السماحة والحرية والحضارة الحقة.

٦- أن يسـتمر فـي تقوية حصون القدس وغيرها استعداداً لتحرير كامل الأرض المحتلة بعد انتهاء الهدنة (٢).

سـعد الجمـيع بهـذا الصلح ما عدا صلاح الدين، لأنه لم يره محققاً ما يصبو إليه من تحرير الأرض كاملـة من الاحتلال الفرنجي، لذلك بعد أن اطمأن إلى عودة ريتشارد إلى بلاده أمر بتقوية حصون القدس وغيرها من القلاع (٣)، ثم دخل دمشق بعد غياب أربع سنوات، فاستقبله أهلها استقبالاً فـريداً، لم يستقبلوا به أحداً من قبل (٤)، ولكن بقاءه فيها لم يطل، إذ مرض مرضاً اشتد به يوماً بعد يـوم، وكـان ابن شداد والقاضي الفاضل يلازمانه، وفي الليلة الثانية عشرة من مرضه، وهي ليلة الأربعـاء ٢٧ من صفر عام ٥٨٩هـ ازداد ضعفاً، وأسلم في فجرها روحه إلى بارئها، وكان يوماً لم يصـب المسلمون بمثله منذ فقد الخلفاء الراشدين (٥) وبوفاته -رحمه ا -انتهى ابن شداد من جمع أخباره -كما صرح بذلك في نهاية كتابه (٦) -وبعدها بزمن بدأ بتبييضها في كتابه هذا.

قصـد ابـن شداد في كتابه هذا ثلاثة أمور، بيّنها في آخر كتابه، بالإضافة إلى ما بيّنه في أول كتابه، وهي:

- حث الناس على الترحم على صلاح الدين، وأن يجزيه ا ما هو أهله.
- ذكر محاسنه وتخليدها.

---

(١)-النوادر السلطانية ٢٣٢ وما بعدها.
(٢)-صلاح الدين الفارسي المجاهد ٣٢٥ - ٣٥٠.
(٣)-النوادر السلطانية ٢٣٧.
(٤)-المصدر السابق ٢٤٠ - ٢٤١.
(٥)-المصدر السابق ٢٤٣ - ٢٤٧.
(٦)-المصدر السابق ٢٤٧.

- أن يحسن خلفاؤه من بعده الاقتداء به وإكمال ما بدأه [١].

ولعل من المفيد أن نختم بحثنا هذا ببعض الملاحظات، وهي:

- لم يكن ابن شداد مؤرخاً جامداً سلبياً بالنسبة إلى صلاح الدين أو الفرنجة، لأنه كان محباً لصلاح الدين معجباً به جداً، وكارهاً للفرنجة المحتلين.
- لكن هذا الحب والبغض لم يؤثرا في صدقه وإنصافه لأعداء صلاح الدين، ونجد ذلك في مثل تأريخه لانتصار صلاح الدين في ميافيارقين إذ يقول: (فحاصرها وقاتلها قتالاً شديداً، ونصب عليها مجانيق، وكان بها رجل، يقال له الأسد، وما قصر في حفظها، ولكن الأقدار لا تغلب فملكها السلطان) [٢]. كما يبدو أيضاً في إسناده نصر صلاح الدين إلى ا ، ونرى ذلك في مثل قوله (وعصمه ا منهم) و(أدخل في قلوبهم الخوف والرعب) [٣].
- ولقد ظهر الحب والكره في لوازم ابن شداد التي كان يكررها، مثل (رحمه ا) [٤] و(قدس ا روحه) [٥]، بعد ذكر صلاح الدين ونور الدين وغيرهما، وفي تعاطفه مع صلاح الدين ودفاعه عن اجتهاداته، ومثل قوله بعد ذكر الفرنجة أو واحد منهم (خذلهم ا) [٦] و(لعنه ا)[٧]. ولكن هذا لم يمنعه من إنصافهم ووصف شجاعتهم، مثل وصفه لملك الإنكتار [٨].
- ومن لوازمه اللافتة للنظر، أنه عندما يذكر مدينة محتلة يتبعها بجملة (يسر ا فتحها) [٩]، وعندما يذكر مدينة مهددة يتبعها بجملة (حفظها ا) أو (حرسها ا) [١٠]، أو بكلمة (المحروسة) [١١].
- ومن لوازمه أيضاً إكثاره من ذكر الآيات القرآنية [١٢]، والأحاديث النبوية الشريفة في أثناء كتابه [١٣].

---

(١)-ا صدر السابق.
(٢)-ا صدر السابق ٦٩ -٨٩- ١٦٧ وغ ها.
(٣)-ا صدر السابق ٤٩.
(٤)-ا صدر السابق ١٣٥ .
(٥)-ا صدر السابق ١٠٥ .
(٦)-ا صدر السابق ١٣٥ .
(٧)-ا صدر السابق ١٥٤ .
(٨)-ا صدر السابق ١٥٧ -١٥٨ .
(٩)-ا صدر السابق ١٣٢ .
(١٠)-ا صدر السابق ٨١.
(١١)-ا صدر السابق ٧٢ .
(١٢)-ا صدر السابق ٢٨.
(١٣)-ا صدر السابق ٣١ .

- ومن ملاحظاتنا أيضاً دقته، فقد كان يذكر في تاريخه اليوم والشهر والعام [١]، أو الشهر والسنة فقط [٢]، وربما ذكر الوقت، صباحاً كان أو مساء، أو بعد صلاة الفجر [٣]. وهذا يعني أنه كان يسجل الأحداث ويؤرخها يوماً بعد يوم، أو ساعة بعد ساعة. كما تبدو دقته في نقله لعبارات كاملة لصلاح الدين أو لغيره.
- تصويره لبعض العادات والتقاليد لدى الطرفين، مثل وصفه لمجالس العدل الذي كان يجلسه صلاح الدين يومين أسبوعاً ويحضره القضاة والأمراء [٤]، ومثل وصفه لبعض تقاليد الفرنج، مثل قوله: (ومن عاداتهم أنهم يتشاورون للحرب على ظهور الخيل، وأنهم قد نصّوا على عشرة أنفس منهم وحكموهم، فأي شيء أشاروا به لا يخالفونهم) [٥]، وقوله في وصف علم الفرنجة: (وعلم العدو مرتفع على عجلة هو مغروس فيها، وهي تسحب بالبغال، وهم يذبون عن العلم، وهو عال جداً كالمنارة، خرقته بياض، ملمع بحمرة على شكل صلبان.) [٦]، كما أشار أيضاً إلى نشوء صداقات بين بعض أفراد الجيشين العربي والفرنجي [٧].

- ونجد في الكتاب أيضاً عدداً من الوثائق الهامة التي توضح العلاقات بين صلاح الدين والدول المجاورة مثل الأرمن والبيزنطيين [٨].
- لم يوقف صلاح الدين حروبه مع الفرنجة في أثناء مفاوضات الصلح معهم [٩]، لأنه كان يعتقد أن القوي في الحرب قوي في مفاوضات الصلح، وأنه كلما حقق مكاسب أكثر، كان موقفه التفاوضي أقوى، وحق فيه مكاسب أعظم.
- لم يوقع صلاح الدين صلح الرملة مع الفرنجة إلا مضطراً، بسبب إلحاح أمرائه وقادته وجنوده الذين ما كانوا يملكون همته وقوته وقدرته على المتابعة وصبره وعزيمته، وأما رأيه في استمرار الجهاد، فقد صرح به بقوله: (والمصلحة ألا نزال على الجهاد حتى نخرجهم من الساحل أو يأتينا الموت) [١٠].

---

[١]- / صدر السابق ٢٠٢.
[٢]- / صدر السابق ١٣٢ .
[٣]- / صدر السابق ٢٤٦.
[٤]- / صدر السابق ١٣ .
[٥]- / صدر السابق ١٢ .
[٦]- / صدر السابق ١٤٩ .
[٧]- / صدر السابق ٢٢٧.
[٨]- / صدر السابق (١٢٤ -١٢٦) (١٣٢ -١٣٣).
[٩]- / صدر السابق ٢٠٤.
[١٠]- / صدر السابق ٢٠٣.

- على الرغم من أن ابن شداد قد كتب مسودات كتابه في حين وقوعها وفي أثناء حياة صلاح الدين، فإنه كتب مبيضاتها بعد وفاة صلاح الدين وفي السنوات الأخيرة من حياته، بعدما ترك العمـل الرسمي، وتفرغ للعلم، قبيل وفاته بأقل من ستة أعوام. يدلنا على ذلك لازمته (رحمه ا) بعـد ذكر صلاح الدين الذي توفي عام ٥٨٩هـ ولازمته (يسر ا فتحه) بعد ذكره لبيت المقـدس. ممـا يعني أنه قد كتب هذا بعدما سلم الملك الكامل بن العادل الأيوبي عام ٦٢٦هـ القدس إلى قائد الحملة الصليبية السادسة إمبراطور الألمان فريدريك [(١)]، وأضاع جهود عمه صلاح الدين العظيمة في سبيل تحريرها. ولكنها حررت ثانية بعد قليل عام ٦٣٧هـ بيد الملك الناصـر الأيوبـي داود أمير الكرك [(٢)]. ثم سلمها للصليبيين مرة أخرى الملك الصالح أيوب والملك الصالح إسماعيل عام ٦٤١هـ [(٣)]، ليحررها ثالثة الملك الصالح نجم الدين أيوب نفسه، الـذي كـان قـد سلمها، بمساعدة الخوارزمية عام ٦٤٢هـ. وهذا التسليم والتحرير المتكرر والسـهل للقـدس يدل على أن كلا الطرفين الأيوبي والفرنجي قد ضعف، وأن عهد الملوك الكبار الأقوياء قد ولى.
- أسـلوب ابـن شداد في كتابه هذا من (السهل الممتنع)، ولولا وجود بعض الألفاظ الأعجمية التي كانت سائدة آنذاك مثل اليزك [(٤)] والجاليش [(٥)] والمنجنيق [(٦)] والبطسة [(٧)] والنمجاه وغير ذلـك مـن الألفاظ لكان الكتاب يبدو من حيث الأسلوب وكأنه لكاتب معاصر تقريباً، ولنأخذ مـثالاً لذلك قوله في ذكر عيسى العوام "ومن نوادر هذه الوقعة أن عواماً مسلماً كان يقال له: عيسـى، وكـان يدخل إلى البلد بالكتب والنفقات على وسطه ليلاً على غرة من العدو، وكان يغـوص ويخـرج مـن الجانب الآخر من مراكب العدو.." [(٨)]. وحتى يزداد وضوح إشراق أسلوبه على الرغم من وجود بعض السجع اللطيف أحياناً قليلة، نقارنه بأسلوب العماد الكاتب الأصـفهاني رفيقه في خدمة صلاح الدين، ولنأخذ مثلاً لذلك هذين السطرين من كتابه (الفتح القسّـي في الفتح القُدسي)، وهو كتاب في تاريخ صلاح الدين أيضاً (لما عرف ملك الإنكتير أن العسـكر قـد اجـتمع، والخرق عليه قد اتسع، وأن القدس قد امتنع، وأن العذاب به وقع،

---

(١)-تتمة / ختصر ٢ /٢٢٢.
(٢)- / صدر السابق ٢ /٢٤٧.
(٣)- / صدر السابق ٢ /٢٥٣.
(٤)-مقدمة / يش (DOZY. SUPP. DICT ARAB) .
(٥)-الراية العظيمة، ول معناها إ مقدمة القلب / يش أو الطليعة (ا صدر السابق).
(٦)-آلة من آلات / صار تقذف / جارة (ا صدر السابق).
(٧)-السفينة الكب ة، النوادر السلطانية ٤٩ حاشية١.
(٨)-النوادر السلطانية ١٣٥.

خضع وخشع، وقصّر الطمع.." [١] ولقد أثر ابن شداد بأسلوبه السهل الممتنع هذا على تلاميذه وغيره مثل ابن خلكان وابن واصل وأبي شامة.

وربما يظن ظان أن ابن شداد قد دفعه حبه لصلاح الدين إلى أن يبالغ في رسم هذه الصورة المثالية الزاهدة النقية التي قلما شهد لها التاريخ الإنساني مثيلاً، فنرد على ظنه بما كتبه المؤرخون والمستشرقون الغربيون المنصفون عنه، و منهم المستشرق الفرنسي البير شاندور الذي ألف كتاباً عنه، جعل عنوانه (صلاح الدين الأيوبي البطل الأنقى في الإسلام) [٢]. ولعل من المفيد هنا أن أذكّر بآخر الكتب العظيمة التي قرأتها عنه، وهو (صلاح الدين الفارس المجاهد والملك الزاهد المفترى عليه) وهو آخر الكتب التي ألفها د. شاكر مصطفى قبل وفاته رحمه ا [٣].

وأخيراً إن ابن شداد في كتابه العظيم هذا استطاع أن يرسم لمعاصريه ولمن جاء بعدهم صورة نادرة لقائد فذ، بلغ الغاية في الإيمان الخالص النقي والأخلاق والثقافة والسياسة والقيادة والإدارة والعدل والشجاعة والحكمة والكرم والمروءة والعدل والصبر والوفاء والأناة والإرادة والجهد والحسم والرقة والنبل وعدم اليأس، لم تنسه قوته وانتصاراته تبعيته للخلافة العباسية ببغداد على ضعفها، وبالإضافة إلى ذلك كله نجده ملتزماً بعادات العرب وكريم أخلاقهم، ويبدو ذلك في قول ابن شداد عنه: (وكان على جميل عادة العرب وكريم أخلاقهم.) [٤] وفي عرضه الإسلام على (أرناط) على الرغم من غدره قبل أن يقتله [٥]. إن أخلاق الدعاء الأتقياء الأنقياء المتصلين بالسماء كانت تسبق في قلبه وفعله صفات السلطان والقائد في السلم والحرب.

لذلك أثرت هذه الخلال الكريمة في كثير من رجالاته تأثيراً كبيراً، وإن لم يستطيعوا أن يبلغوا مبلغه فيها، مثل أخيه العادل وأبنائه الظاهر والأفضل والعزيز وابن أخيه المظفر والقاضي الفاضل وابن شداد وغيرهم من الجنود العاديين الذين فضلوا أن يغرقوا سفينتهم بأيديهم، وأن يغرقوا معها، حتى لا تقع في أيدي العدو ويفيد منها [٦]، كما أثرت في الناس العاديين أيضاً، مثل ذلك الرجل الدمشقي الذي اخترع ناراً أحرقت الأبراج المتحركة التي صنعها الفرنجة للهجوم على المسلمين، وقاومت نيرانهم، واستعصت عليها، حتى كادوا يخسرون أمامها [٧]، ثم توارى عن الأنظار معتذراً عن قبول أي جزاء أو شكر مكتفياً بثواب ا .

***

---

(١)- الفتح القسي ٣٣٩.

(٢)- طبعته دار طلاس، دمشق طبعة أو ١٩٨٨، وثانية عام ١٩٩٣.

(٣)- طبعته دار القلم، دمشق ١٩٩٨م.

(٤)- النوادر السلطانية ٧٨.

(٥)- ا صدر السابق.

(٦)- ا صدر السابق ١٦١.

(٧)- ا صدر السابق ١٢٠.

المراجع والمصادر:

-اختيارات من كتاب النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية
محمد درويش، وزارة الثقافة، دمشق ١٩٨٧.
-الأدب في العصر الأيوبي،
محمد زغلول سلام، منشأة المعارف، الإسكندرية ١٩٩٧.
-الأعلام، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، ط٦، ١٩٨٤.
-البداية والنهاية
ابن كثير، ت. مجموعة من المحققين، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٥.
-تتمة المختصر (تاريخ ابن الوردي)
ابن الوردي، ت. أحمد رفعت البدراوي، دار المعرفة، بيروت ١٩٧٠.
-الروضتين في أخبار الدولتين
أبو شامة، ت. محمد حلمي محمد أحمد، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٥٦.
-زبدة الحلب من تاريخ حلب
كمال الدين بن العديم، ت. سهيل زكار، دار الكتاب العربي، دمشق ١٩٩٧.
-صلاح الدين الأيوبي البطل في الأنقى في الإسلام
البيرشاندور، تر. سعيد أبو الحسن، دار طلاس، دمشق، ط٢، ١٩٩٣.
-صلاح الدين الفارس المجاهد والملك الزاهد المفدى عليه
شاكر مصطفى، دار القلم، دمشق ١٩٩٨.
-الفتح القسي في الفتح القدسي
العماد الكاتب الأصفهاني، المطبعة الخيرية، القاهرة ١٣٢٢هـ.
-مفرج الكروب في أخبار بني أيوب (الجزء الرابع)
ابن واصل الحموي، ت. حسنين محمد ربيع، وزارة الثقافة، القاهرة ١٩٧٢.
-النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة
ابن تغري بردي، وزارة الثقافة، القاهرة ١٩٦٣.
-النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (سيرة صلاح الدين)
بهاء الدين ابن شداد، ت. جمال الدين الشيال، الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٦٤.
-وفيات الأعيان
ابن خلكان، ت. إحسان عباس، دار صادر بيروت ١٩٦٨.
-مجلة الذخائر
بيروت، العدد ٩، شتاء ٢٠٠٢.
-Dozy. Supp. Dict.Arab Paris ١٩٢٧

❑❑❑